

التأثير التنموي على الفن المعماري الفاطمي

الدكتور/ علي جبر
مدرس العمارة
كلية الهندسة - جامعة القاهرة

عززوا سور المدينة بصفة الانتصار ولو رمزياً أو معنوياً . عند المقابلة بين المناهج الثلاثة يبدو أن الثالث والأخير هو أكثرهم مناسبة لتطبيقه على العمارة الفاطمية لأن هذه العمارة مصدرها معتقدات الطائفة الشيعية الإسماعيلية، وحيث أن العمارة بصفة عامة تمثل عملاً اجتماعياً فمن المنطقي أن المعمار الفاطمي يمثل مرآة ممتازة تعكس المعتقدات الإسماعيلية . وإيجازاً لما يأتي يمكننا القول بأن المعتقدات الإسماعيلية كانت مصدر النظام القيمي السائد في المجتمع الفاطمي لأنها كانت من ناحية الوسيلة الوحيدة لضمان استمرار الدولة الفاطمية في مصر، وكانت من ناحية أخرى ، الطريقة الوحيدة لنشر الدعوة الشيعية ، ونريد أن نشير خلال المقال إلى أن العمارة الفاطمية عامة وعمارته الدينية خاصة تشكلت لكي تلائم العقيدة الشيعية الجديدة واحتياجاتها الرمزية والنقوية وسيظهر ذلك بوضوح عند تناول بعض الأمثلة المعمارية الفاطمية وبالتحديد مشهد الجيوشي ومسجد الأقرم ومشهد السيدة رقية . والآن حيث أنه قد ثبت أن الدين هو الذي أعطى للمعمار الإسلامي التقليدي عموده الفقري لنظامه القيمي وأصوله فإن خطوتنا الأولى هي التطرق إلى المعتقدات الإسماعيلية الرئيسية والتعرف عليها . إن أساس العقيدة الشيعية هو الإيمان بحق أهل البيت بالخلافة أو الإمامة بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)

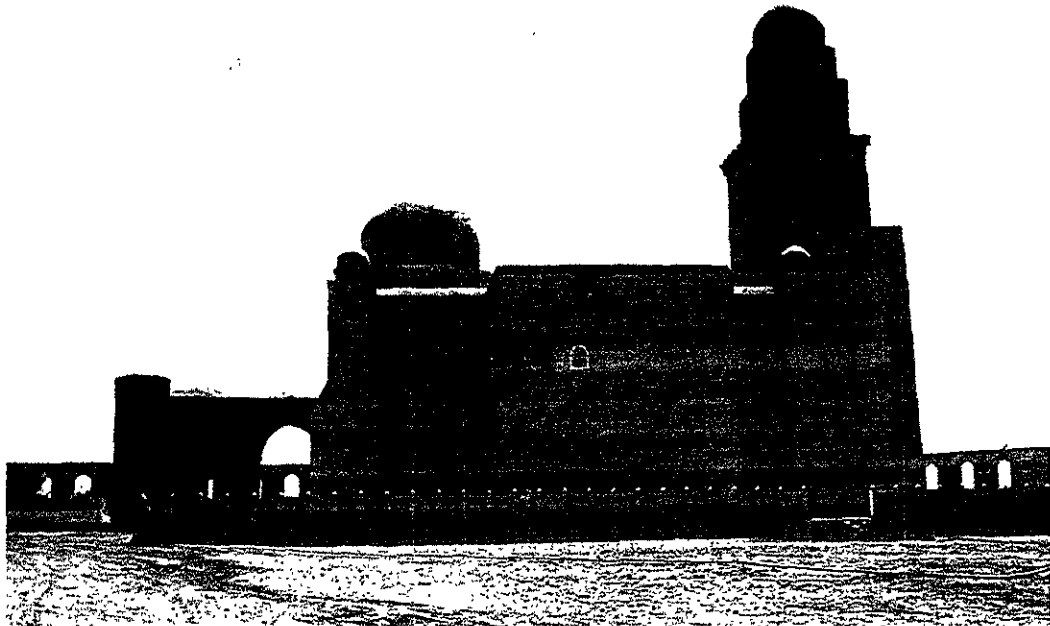
وجودها أصلاً لو التزمنا بهذا المنهج . وأخيراً يوجد المنهج التقليدي الذي يركز على الدين كما مارسه وفهمه المجتمع التقليدي . ومن المفترض هنا أن هدف كل أعضاء المجتمع التقليدي هو عكس القيم والمبادئ التقليدية على الأعمال الفنية والمادية التي ينتجونها . وعلى نقيض المنهج السابق يحتوى مفهوم الدين في هذه الحالة على عديد من المعتقدات والبدع التي تطورت مع الزمن وهي قد لا تتطابق مع العقائد الدينية الشرعية ، وتتولد هذه المعتقدات أصلاً من اعتماد المجتمعات التقليدية على مفاهيم مادية ملموسة لفهم العالم بالإضافة إلى مفاهيم كونية ، فعلى سبيل المثال إن رؤية مسلم القرون الوسطى للأرض كان متعلقاً بمفهوم الكون الذي يتكون من سبعة سماوات وسبعة أراضى، ومن خلال هذه الرؤية نشأ انعكاس الأرض والكون على بعضهما البعض، أو لناخذ مثلاً من التراث الفاطمي الإسماعيلي عندما أراد الفاطميون إنشاء عاصمتهم القاهرة انتظروا لحظة ظهور كوكب المريخ أو « القاهر » كما كانوا يسمونه طبقاً للاعتقاد الشيعي لأن هذه اللحظة تمثل أعلى رتب الانتصار وقهر للأعداء وهذه الواقعة ليست مبنية في أوراق المؤرخين الفاطميين فحسب ، بل هي مجسدة على مدخل باب الفتوح نفسه حيث ترى صفاً من رؤوس الكباش على طول عتب البوابة وهي ترمز لبرج المريخ ، فمن خلال تنفيذ هذه الفكرة بشكل معماري ملموس تأكد الفاطميون من أنهم قد

" لقد رأيت مجموعة من المباني والتشريفات والقرارات وكان هناك اثنا عشر بيتاً جميعها مربع الشكل .. فتح أحدها عرش احتله عرض الجبهة بجمالها ومخاربت جوانبه الثلاثة من الذهب المطوط بفرط جميله ويحيط به طرايزين مفرور من الذهب جماله لا يوصف ومن خلف العرش طرخ من الفضة "

إن هذا الوصف واحد من قلة معدودة للقاهرة في العصر الفاطمي ، والتي وصلتنا بفضل كتابات ناصر خسرو الشاعر الإسماعيلي الذي زار القاهرة في عصرها الذهبي . ولكن بالرغم من عظمة هذا الوصف إلا أنه لم يخبرنا كيف ولماذا بنيت هذه المباني ، كما أنه لا يطلعنا على مدى أهميتها لمؤسسيها أو مستخدميها من عامة الشعب المصري . فقبل أن نوضح المناهج التي يمكن اللجوء إليها حتى نفهم تراثاً قد مات منذ أكثر من ألف سنة نرجو أن نذكر بما ينسأه كثير من مؤرخي الفن والعمارة وهو أن مصدر أي معمار ديني تقليدي يتولد من اعتماده على مجموعة من المبادئ والمفاهيم التي تستمد من الدين نفسه، لذلك يمكننا القول بالنسبة لموضوعنا اليوم بأن الإسلام هو الذي حث الأمة على إنتاج عمارة مناسبة لاحتياجاتها وأن هذه تغيرت تدريجياً على مر الزمن . أما المناهج المختلفة التي يمكن تطبيقها في دراسة العمارة الإسلامية فهي ثلاث: أولها المنهج التاريخي البحث وهو أكثر هذه المناهج شيوعاً، فلتفسير المعمار الإسلامي يلجأ أصحاب هذا المنهج إلى

المخطوطات وأمهات الكتب وتنصب اهتماماتهم على السياق الاقتصادي والسياسي للفن المعماري بالتركيز الخاص على مؤسسي المباني ويرجع هذا الوضع إلى طبيعة المخطوطات نفسها التي تتناول تاريخ الموملين والسياسيين بالتفصيل لأنها قد كتبت أصلاً تحت ظلم ، وكثيراً ما يحدث في هذا المنهج أن العوامل العقائدية الدينية تعتبر مجرد عامل ضمن مجموع من المؤثرات الأخرى التي تؤثر على النتاج المعماري مثل المناخ والخامات البنائية المتوفرة والمؤثرات الأجنبية إلى آخره . أما المنهج الثاني فيعرف بمنهج الشريعة وهو يرى الفن المعماري إقراراً لمجتمع إسلامي نموذجي عموده الفقري الشريعة التي جاء بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) . فلا يأخذ في الاعتبار اقتباس المجتمع التقليدي للبدع على مر العصور بل يتجاهل هذه البدع لأنها لا تمثل الدين الإسلامي الصحيح . ويؤدي تطبيق هذا المنهج إلى عدم فهم كثير من الأعمال الفنية والمعمارية نذكر منها على سبيل المثال الأضرحة في العالم الإسلامي السني والتي لا يمكن تفسير





مشهد الجيوشي

تتكون من كلمتي « محمد » و « علي » ومن الواضح أن يدل تشابك الاسمين على العلاقة المتكاملة ما بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومستقبل الرسالة وعلى (الباب) ومفسرها .
ونقرأ حول النجمة الآية القرآنية التالية « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفره عند ربهم إلا مقتناً



مدخل الجيوشي وبهاوة النص التأسيسية

الجمهورية الإسلامية الليبية
ورحمة الله عليه

لنبدأ بمشهد الجيوشي الذي أنشئ عام ١٠٨٥ على جبل المقطم . وقد أثار هذا المشهد حيرة المؤرخين منذ وقت طويل بسبب موقعه الغريب وأخيراً رجحوا أنه أحد مجموعة من المشاهد أنشئت لأولياء من الطائفة الإسماعيلية، وبالنظر إليه نجد طرازاً منقوشاً فوق منخله نصه :

« أنشأ هذه الزاوية السيد والرب مولى أمير المؤمنين الإمام المستنصر بالله أمير الجيوش عليه بركة الله وعلى أهله الأئمة المطهرين وذرياته إلى يوم الدين » .

أول ما يسترعى الانتباه هو تلقب الإمام « برب » و « سيد » كلمتان من صفات الرحمن مع أنهما هنا تشيران إلى الإمام . ونلاحظ التركيز على فكرة النسب باستعمال كلمتي « الأهل » والذريات « وهم » الإئمة المطهرين » لأنهم حصلوا على العلم اللدني مباشرة من عند الله كما ذكر من قبل . ولا شك بأن من أهم عقد على شكل كيل ينتهي ببروز دائري يحمل اسمي محمد وعلى مكتوبين بخط متشابك . أما القبة التي تعلو هذه الباكية فتزينها نجمة سداسية

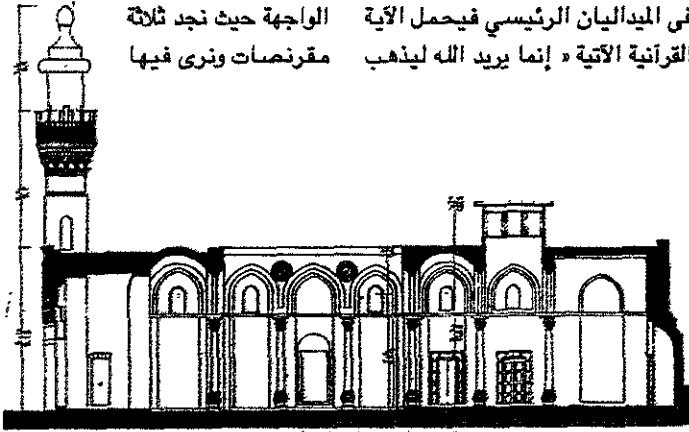
في سلسلة متواصلة ابتداءً من علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة ، ومن بعده ولديه الحسن والحسين وسلاتهما وخصوصاً علي زين العابدين لأنه الوحيد الذي بقي حياً بعد مذبحة كربلاء ، وسبب التمسك في إمامة أهل البيت هو ما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه في خطبة الوداع والذي يعتبرها الشيعة « النص » أي التولية . فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : « من كنت مولاه فعلي مولاه » واختلف الناس على تفسير هذا القول بعد وفاة الرسول وتولى الخلافة أبو بكر ثم عمر وبعدهما عثمان (رضي الله عنهم) مما أدى في نهاية المطاف إلى تفرقة المسلمين إلى مذهبي السنة والشيعة .

ولم يمر وقت طويل حتى انقسمت الشيعة نفسها إلى طائفتي الإثنا عشرية والإسماعيلية، أو السبعية كما تسمى أحياناً ، وذلك في عام ١٤٨ هجرياً بعد وفاة الإمام السادس جعفر الصادق ، وكان سبب الانقسام هو الاختلاف على من يخلفه لأن ابنه إسماعيل كان قد توفي قبل وفاة والده ، فقد اعترفت الإثنا عشرية بأخي إسماعيل الصغير وسلالته من بعده بينما اعترفت الإسماعيلية بأن إسماعيل المتوفى هو الإمام السابع والأخير وبالتالي اكتسبوا اسم السبعية .
ويجب علينا ألا ننقل من شأن الإمامة في العقيدة الشيعية لأنها من صلبها وذلك لأن فهم الإسلام الحقيقي في المعتقدات الشيعية لا يتم إلا من خلال فهم نص القرآن والذي لا يتحقق - عند الشيعة - إلا من خلال الإمام الذي يحصل على المعرفة مباشرة من الله ويضربوا المثل على ذلك سيدنا الخضر الذي أُرشد موسى إلى حكمة الله ومشيبته الإلهية فقال الله تعالى في سورة الكهف « فوجدوا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً » فلا يعتمد هذا النوع من المعرفة على مفسرين لأنها تدرك بلا وسيط ، وقد نتج عن هذا الاعتقاد فكرتا الباطن

والظاهر ، فوُرد العلم الباطني الأئمة الذين يمثلون مصدر الخلاص والإرشاد ومن عصاهم عاقبه الله ، كما يقال في كتاب الروض النادر الذي كتب في القرن العاشر أن من عصا الإمام مات « ميتة الجاهلية » ومن المهم أن نشرح الدور الذي يلعبه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلى رضي الله عنه في العقيدة الشيعية : يعتبرون الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو الوسيط الذي أنزل عليه القرآن للبشرية ، فكرة نهاية الوحي المتزامنة مع وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا وجود لها عند الشيعة لأنها تناقض إيمانهم بالإئمة الذين أيضاً أُوحي إليهم . أما علي (رضي الله عنه) الذي قدر على تأويل باطن القرآن فيمثل باباً يخجل به المسلمون حتى يلمسوا هذا الباطن ويفهموا أسراره لذلك يمكننا القول بأن في الفكر والعقيدة الشيعية لولا النبي لما أنزل القرآن ولولا علي لما تم فهمه وتأويله .

بعد فهم النقاط الرئيسية للعقيدة الشيعية نستطيع الآن أن ننظر إلى بعض أمثلة العمارة الفاطمية لثرى تأثير هذه العقائد عليها .

عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً . - فبالإضافة إلى النص الذي سبق ذكره تعتقد الشيعة أن هذه الآية تثبت أحقيتهم في الإمامة . ففي التراث الشيعي يقال أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نزلت عليه هذه الآية ذات صباح وهو يلبس كساء حضن تحته فاطمة ثم على ثم الحسن والحسين . وترى الشيعة في هذه الآية إنذاراً من الله ينذر به أهل البيت بالفتنة الوشيكة ويطمئنثهم أنها من إرادته . ويحتوى الميدان كذلك على رسم متشابه يشكل اسمي محمد وعلى وكما قلنا بالنسبة لشهد الجيوشى هذا يرمز إلى أهمية شخصيتيهما في العقيدة الإسماعيلية . ويتكرر هذا الموضوع في ركن من أركان الواجهة حيث نجد ثلاثة مقرنصات ونرى فيها

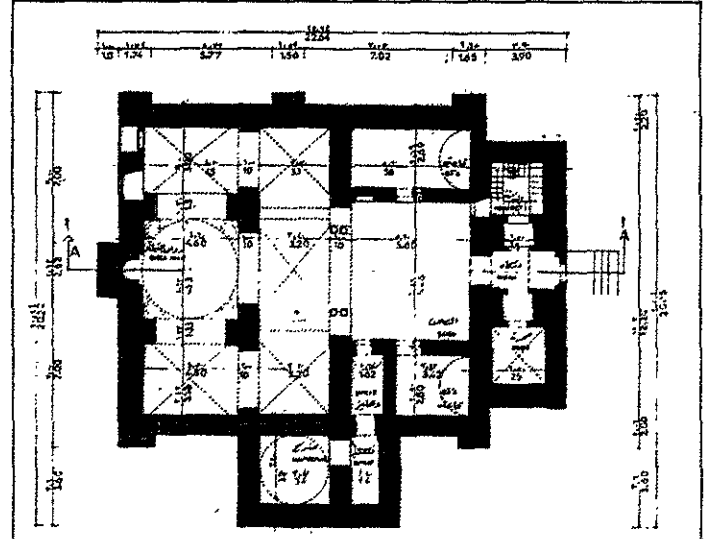


قطاع مار لمسجد الأقمـر

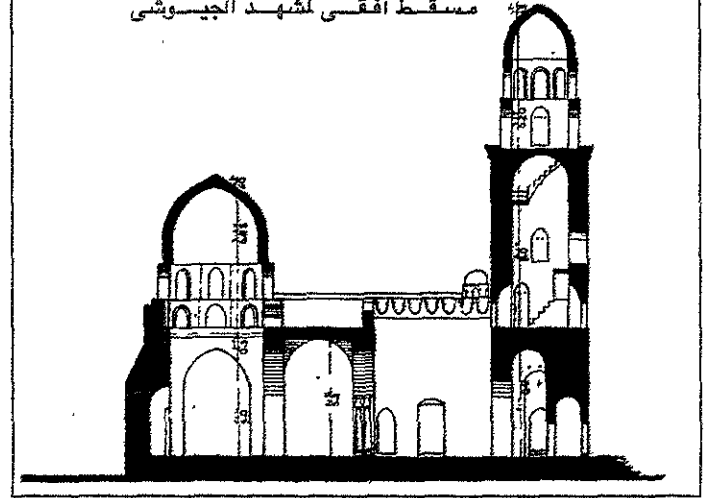
بالأئمة فيسير على الصراط المستقيم أو بصورة أخرى أنه من الواجب على المؤمن أن يهتدى بشخصيتى محمد وعلى اللذين يشكل اسماهما النجمة حتى يصل إلى التوازن بين الظاهر والباطن .

فإذا انتقلنا إلى مسجد الأقمـر الذى أنشئ عام ٥١٩ هجرىاً فى قـصبة القاهرة الفاطمية ويعتبر من أهم الآثار المعمارية الفاطمية نجد الذى يهمننا الآن هو واجهة المسجد بالذات لأنها مليئة برموز شيعية .

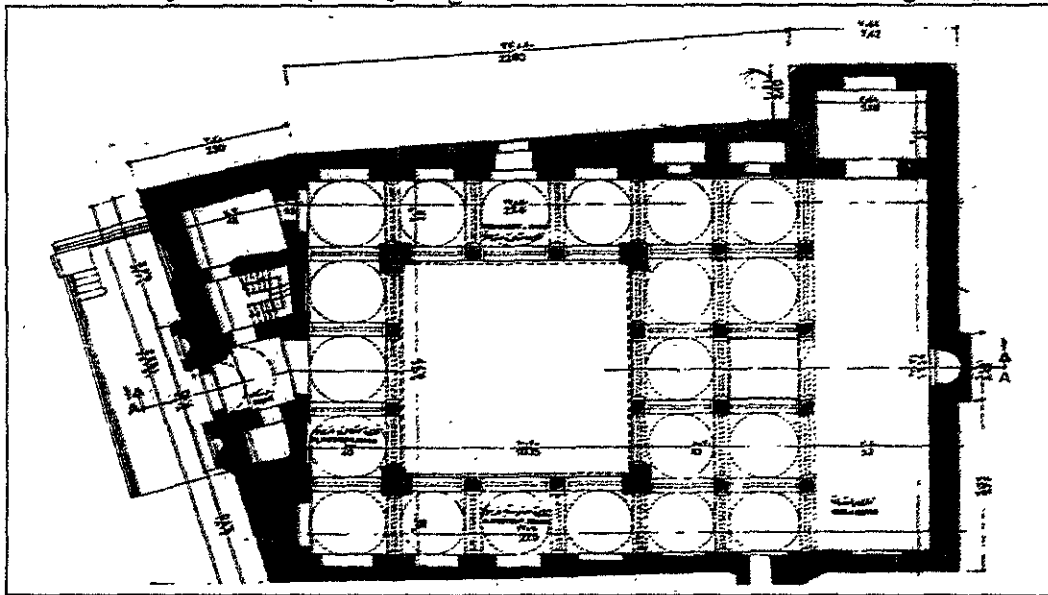
فكما رأينا فى مشهد الجيوشى يدعو الطراز الرئيسى فى المسجد ببركة الله على الأئمة المطهرين ونرياتهم . أما الكتابة الثانية التى نراها فوق المدخل فى الميدان الرئيسى فيحمل الآية القرآنية الآتية « إنما يريد الله ليذهب



مسقط أفقى لشهد الجيوشى



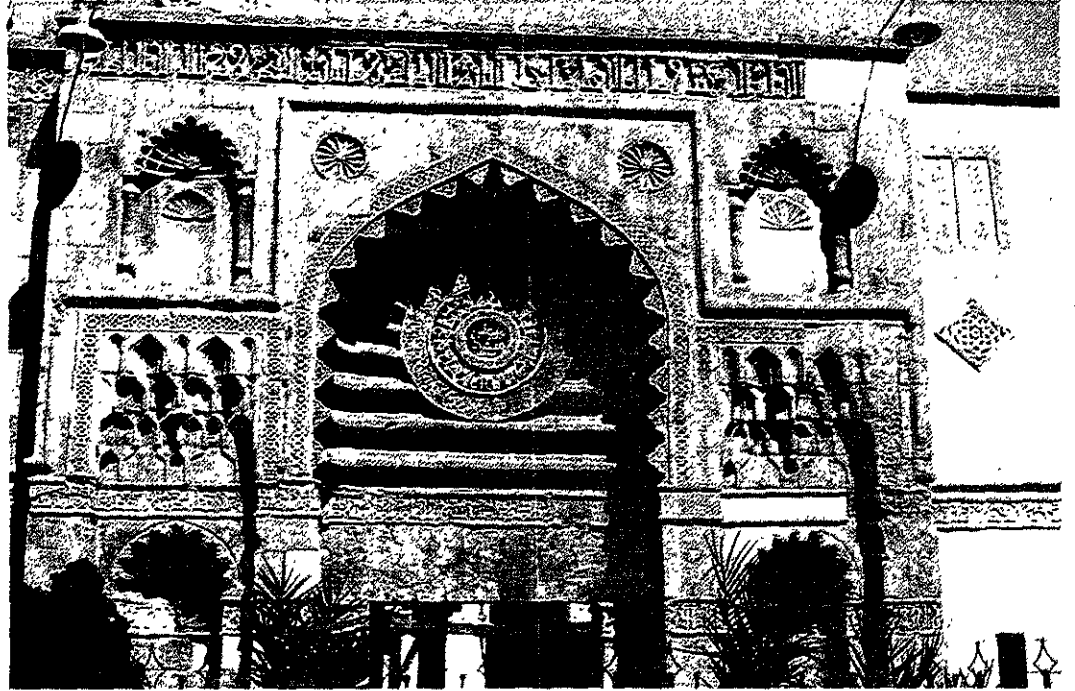
قطاع مار بمشهد الجيوشى



مسقط أفقى لمسجد الأقمـر

ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً » . وهذه الآية مناسبة جداً لفكرة الإمامة عند الإسماعيلية حيث أنهم أولوا كلمة « الخلائف » بمعنى الأئمة . وعاقبة الكفر بالإئمة معاقبة قاضية تسترجع إلى الأذهان « مينة الجاهلية » التى تم ذكرها سابقاً ومصدرها كتاب الروض النائر . وأهمية الإمام تطابق أيضاً مكان النجمة فى مركز القبة . أما النجمة نفسها فنذكر صلتها بالحديث النبوى المشهور « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » فى هذا الحديث يشبه الأصحاب أى الإئمة فى المذهب الشيعي بالنجوم التى يهتدى بها المسافر براً ويحراً حتى يصل إلى مقصده كما أنه من المفترض أن يهتدى المؤمن روحياً

بنور مصباح في محراب - مشكاة -
وتنتهي الآية بالكلمات « نور على نور
يهدى الله لنوره من يشاء » . ففي التوثيل
الإسماعيلي النور يمثل الأئمة أيضاً
فعلی ضوء هذه المفاهيم يمكننا أن ننظر
مرة أخرى إلى المحاريب في واجهة
المسجد ونرى أن الميداليات تمثل النور
بأشعتها وأن أصل هذا النور هو الرسالة
الإلهية التي أوحى الله بها إلى الرسول
(صلى الله عليه وسلم) وقسرهما على
(رضى الله عنه) الباب والإمام الأول .
ربما لا تزال الرموز بعيدة أو غامضة
بعض الشيء فلكي نقرب فهمها ننظر
الآن إلى وحدة زخرفية تقع في الركن
الأسر من الواجهة حيث يوجد عمودان
يدعمان عقد كحراب ومن رأس العقد
يتدلى مصباح وتملاً المساحة الخالية
فوق العقد دائرتان تحوي إحداهما على

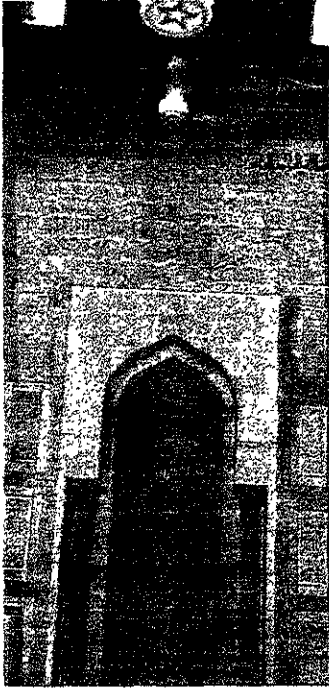


أحد الزخارف ويطوها الميداليان

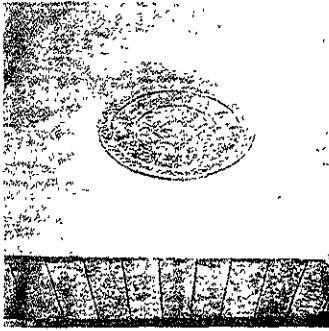
واجهته الجامع الأحمسر
اسمى محمد وعلى بجانب آية قرآنية ،
فكتب على المحراب الأعلى « إن الله
مع » ويتبعه على المحراب في أسفل
اليمن ، « الذين اتقوا » وأخيراً على
المحراب في أسفل اليسار ، « والذين هم
محسنون » . فبناء على هذا التصميم
يمكن إما قراءة الآية بكاملها وعلى
جانبيها اسمي محمد وعلى وإما قراءتها
« إن الله مع محمد وعلى » وكذلك لا
يخلو موضع التصميم في ركن المسجد
من أهمية حيث أنه يذكرنا بآركان الدين
وتعزيزها بذكر محمد وعلى . وإذا رجعنا
إلى المحاريب مرة أخرى نجد أولاً أن
عدها سبعة وهو رقم ذو أهمية كبيرة
عند الإسماعيلية حيث أنه يرمز إلى
الطائفة نفسها وثانياً عندما ننظر إلى
شكل المحاريب نلاحظ أن كل واحد منها
في وسطه ميداليان تتبععت منه أشعة
ذات خدد تشبه أشعة نور وكتب على
ثلاثة محاريب منها اسم محمد وعلى .
ولكى نقدر رمزية هذا الاسم ونفهمها
علينا أولاً أن نستطرد قليلاً إلى أهمية
النور في الإسلام عامة وعند الإسماعيلية
بصفة خاصة فنجد في سورة النور أن
الله هو « نور السموات والأرض » ويشبه



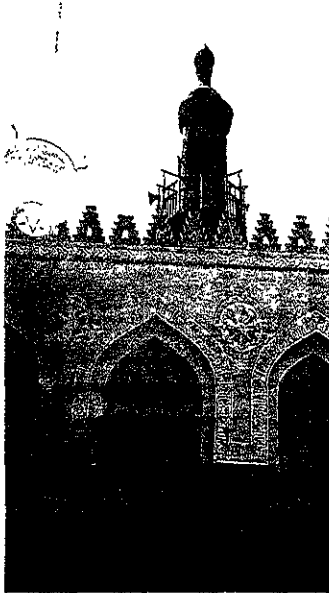
أحد المحاريب بواجهة الجامع الأحمسر



محراب المسجد الحاكم



الميدانيان الذي يعلو المنخل

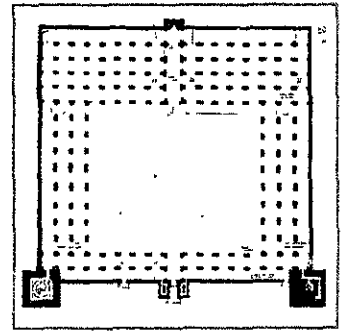


الكتابات القرآنية حول المقود

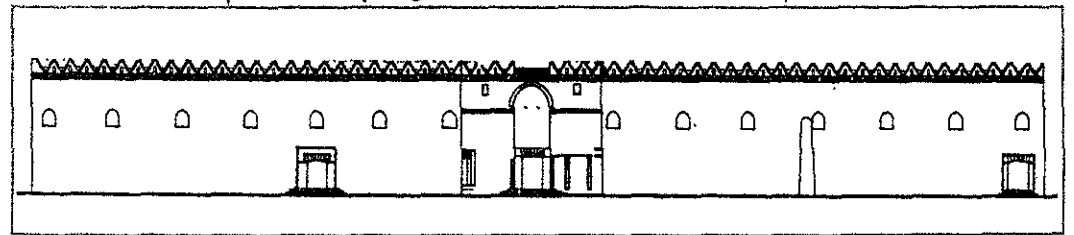


منخل مسجد الحاكم

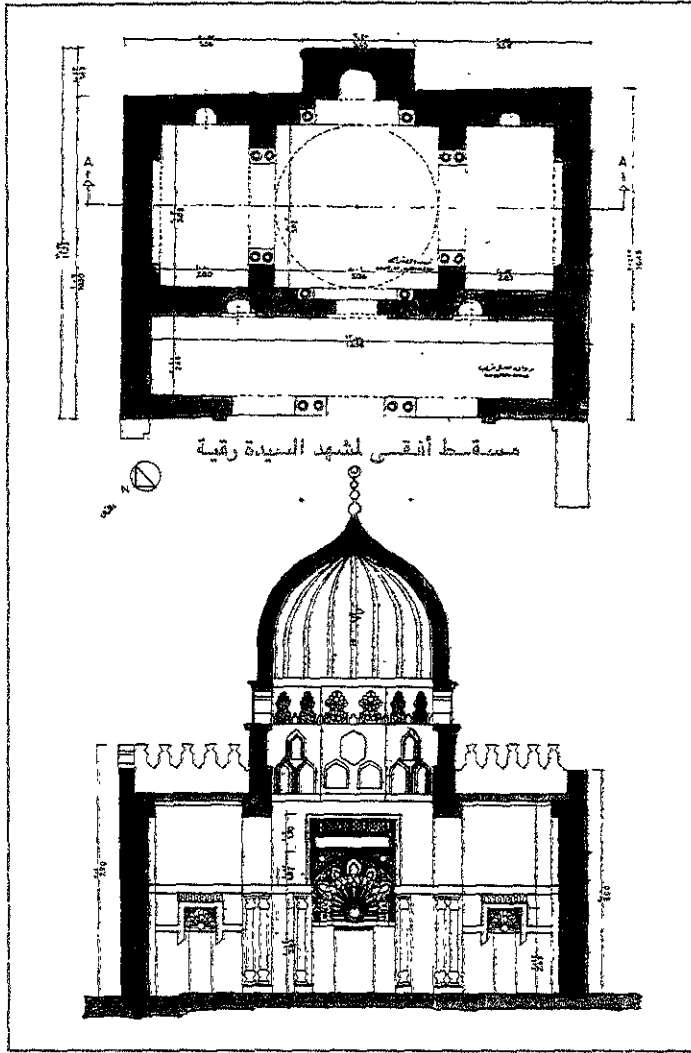
كلمة « محمد » والثانية « وعلى » وتوجد أسفل العقد نجمة سداسية أو ختم سليمان كما يسمى في الفترات التقليدية. وكثيراً ما كان في العصور الوسطى ختم سليمان يبدو للمسلمين كمثليين متساويي الأضلاع موضوعين فوق بعضها البعض أحدهما يشير إلى السماء أو الكون والآخر يشير إلى الأرض. ومن حيث أنهما يشكلان صورة متوازنة هندسياً كان المسلمون يرون فيها العلاقة المتوازنة والمنسجمة بين الكون والأرض. وإلى هذه الفكرة تضيف الشيعة العلاقة بين الظاهر والباطن التي يمثلها محمد وعلى. ومن المحتمل أن تدل النجمة في هذا السياق على الحديث الذي سبق ذكره والذي منته « أصحابي كأنجوم بأبهم اقتديتم اهتديتم » وفيما يتعلق بالنور والمصابيح والفاطميين نجد تشبيهات كثيرة عند الشيعة فنذكر مثلاً الكاتب الشيعي رشيد الدين بن شهر آشوب الذي يقول أن الحسين هو « مشكاة المؤمنين » و « مشكاة روایط أهل البيت الأعلى » و « الأقرم » و « نور الفاطميين » و « جزء من النور الإلهي ». وأخيراً علينا ألا ننسى المعنى المباشر لاسم مسجد الأقرم نفسه وهو النور المنبعث من القمر وأن في العصر الفاطمي كان مسجد الحاكم يعرف بمسجد



مسقط أقي مسجد الحاكم



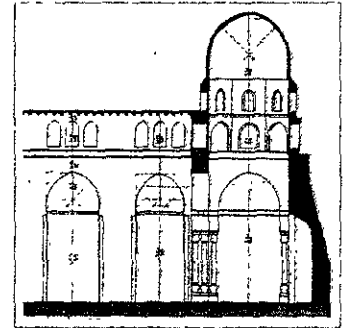
واجه مسجد الحاكم



مخطط أنقى لمشهد السيدة رقية

« الأتور » . كل هذه الأمثلة تشير إلى أهمية الرموز ومركزيتها في العقيدة الشيعية وعماريتها ولاسيما أهمية التور وشكل النجمة وشخصيتي الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلى (رضى الله عنه). فلنلقى نظرة أخيرة على واجهة مسجد الأقمق ونلمح تشكيلاً آخر مثيراً للاهتمام يمثل باباً مغلِقاً يشبه إلى حد بعيد تشكيلات الحشوات الشيعية الموجودة في باب مسجد الحاكم . وهذا الرسم نو معينين أولهما يتعلق بفكرة الباطن فيجسد الباب علماً (رضى الله عنه) بصفته مدخل المؤمن إلى باطن القرآن، وثانيها يتعلق باختيار رسومات حشوات باب مسجد الحاكم بالذات لأنه كان الجامع الرئيسي في هذا العصر .

وأخيراً نتجه إلى الفراغ الداخلي لمشهد السيدة رقية والذي أنشئ سنة ١١٣٣ . فيرى الواقف في قاعة المشهد خمسة علامات يطن بها الفاطميون هوية الباني الإسماعيلية ويعبرون بها عن دورهم كحماة الدولة والدين . وفي الوقت نفسه كانوا يسمعون إلى إقناع عامة الشعب باعتناق العقيدة الجديدة وذلك بإحاطتهم بمرمز الإسماعيلية الواضحة وملحوظة يوم بعد يوم وصلاة بعد صلاة كأنها تنكرة دائمة للدعوة الإسماعيلية .



قطاع مار بمسجد الحاكم

مخاريب ثلاثة منها تحتل حائط القبلة والأخران كل على جانب من جانبي المنخل . وكما قد نكرنا شأن الرقم سبعة عند الإسماعيلية ، فالرقم خمسة لا يقل عنه أهمية لأنه يرمز إلى أهل الكساء الذين قد نكرناهم سابقاً وهم : الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلى وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم . وكما قد رأينا عدة مرات المحراب الرئيسي له رسم عبارة عن بروز دائري يأتي منه أشعة وفيه اسم على (رضى الله عنه) يحيطه اسم محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي تتكرر كتابته ست مرات وهذا تصميم متكرر وممتشر موجود في كل المباني التي قد حللناها سابقاً ويمثل في كلها محور أو بؤرة المحراب . وفوق عقد المحراب



لقطة توضح الكتابات الموجودة على المحراب بمشهد السيدة رقية



أحد المخاريب الصغيرة بمشهد السيدة رقية



المحراب الرئيسي بمشهد السيدة رقية